الفصل الرابع

الأربعة الذين صنعوا ثورة

من الذي سوف يحررنا من نير الحضارة الغربية؟[1]

- جورج لوكاش

منظر ماركسي.

إن الدولة الشمولية الكفء حقيقة ستكون دولة يسيطر فيها التنفيذيون الأقوياء من الرؤساء السياسيين مع جيشهم من المديرين على سكان من العبيد الذين لا داعي لقسرهم لأنهم يحبون عبوديتهم.[2]

- ألدوس هاكسلي

عالم جديد شجاع.

الجذر الكبير للثورة التي استولت على المؤسسات الثقافية للجمهورية الأمريكية تعود إلى الخلف بعيدا إلى ما وراء الستينيات من ١٩٦٠، تعود إلى آب أغسطس ١٩١٤، بداية الحرب العظمى التي يسميها المؤرخ جاك بارزن" الضربة التي طوحت بالعالم الحديث في مساره الذي أدى به إلى تدمير ذاته."

في ٤ آب أغسطس ١٩١٤، وقف الاشتراكيون الديمقراطيون في الرايخستاغ (البرلمان) وصوتوا، كلهم بدون استثناء، على حسابات الحرب للقيصر، والتحقوا بذلك بحفلة الوطنية في الوقت الذي كانت فيه جيوش الرايخ قد سحقت بلجيكا ودخلتها. ذُهل الماركسيون؛ فالحرب الأوروبية التي توقعوها طويلا كان يفترض أن يكون زمانها زمانهم. فماركس كان قد أرعد في السطر الأخير من بيانه الشيوعي بالقول: "يا عمال العالم اتحدوا". وقد توقع الماركسيون بثقة أن العمال عندما تجيء الحرب سوف ينتفضون ويثورون ضد حكامهم أكثر مما يقاتلون رفاقهم العمال في الأمم المجاورة. ولكن هذا لم يحدث. وانقلب أكبر حزب اشتراكي في أوروبا إلى حزب حرب، ورمى العمال عُددهم وخرجوا للقتال والأغنيات في قلوبهم. وكما تصف ذلك المؤرخة باربارا تكمان فنقول:

> عندما جاء النداء قام العامل الذي صرح ماركس أنه ليس له وطن أُم، بالتماهي بنفسه مع البلد، لا مع الطبقة. وتبين أن العامل عضو في أسرة وطنية مثل أي شخص غيره. وقوة عداوته التي كان يفترض أنها ستقلب الرأسمالية وجدت لها في الغريب هدفا أفضل. لقد ذهبت الطبقة العاملة إلى الحرب بإرادتها، وبرغبة أيضا مثلها مثل الطبقة الوسطى، ومثل الطبقة العليا، ومثل النوع الإنساني.[٣]

لقد انكشف الماركسيون بوصفهم حمقى.

ومع تكشف أهوال الجبهة الغربية انتظر الماركسيون. ولكن حتى معركة إيبر، ومعركة باشنديل، ومعركة السوم، حيث لقي مئات الألوف من الجنود البريطانيين حتفهم فوق بضع ياردات من الطين، لم تؤد بالعمال إلى الانقضاض في وطن الثورة الصناعية. وكذلك فلا الطبقة العاملة الفرنسية ولا الطبقة العاملة الألمانية انكسرت في فردان. والتمرد الذي حصل في العام ١٩١٧ في الخنادق الفرنسية سحق بسرعة. وجاءت ضربات جديدة عند نهاية الحرب.

بعد الثورة الروسية حاول الشيوعيون القيام بانقلابات في بودابست وميونخ وبرلين. وسُحق السوفيت البافاريون بسرعة من قبل الجنود القدامى الألمان. وروزا لوكسمبرغ(*) التي قادت هذا التمرد الاسبارتاكوسي، وكارل لبكنكث ضربا بالهراوة وأطلق عليهما النار حتى الموت في برلين من قبل قوات الوحدات الحرة. ودام نظام بللا كون(**) في بودابست لأشهر قليلة. وفشل العمال في التحشد والالتفاف حول الثورات التي أُطلقت باسمهم.

(*) روزا لوكسمبرغ (١٨٧٠-١٩١٩) قائدة اشتراكية ألمانية شاركت في ١٩١٨ بتأسيس حزب سبارتاكوس الذي صار في ما بعد هو الحزب الشيوعي الألماني اعتقلت بعد التمرد في العام ١٩١٩ ثم أعدمت.

(**) بللا كون: (١٨٣٦-١٩٣٩؟) وهو سياسي هنغاري أسس الحزب الشيوعي الهنغاري (١٩١٨).

وحاول تروتسكي(*) أن يجعل الجيش الأحمر هو رأس الحربة للثورة. وعندما غزا بولندا دفع به الوطنيون البولنديون إلى الخلف عند نهر الفيستولا تحت قيادة المارشال بيلسودسكي(**). وبهذا لم يمر ولم ينجح أي شيء تنبأ به الماركسيون. لقد جاءت ساعتهم وذهبت. وعمال الغرب، البروليتاريا الأسطورية، رفضوا أن يلعبوا الدور الذي حدده لهم التاريخ. كيف يمكن لماركس أن يكون على هذا النحو من الخطأ؟.

والآن قدم اثنان من أتباع ماركس تفسيرا. نعم، ماركس كان مخطئا. والرأسمالية لم تكن تفقر العمال. وفي الحقيقة فإن حظهم كان في تحسن، ولم يهبوا في ثورة لأن أرواحهم كانت مشبعة بألفي عام من المسيحية التي أعمتهم عن مصالحهم الطبقية الصحيحة. فما لم تجتث المسيحية والثقافة الغربية من روح الإنسان الغربي وإلى أن تجتثا منها، وهما الجهاز المناعي للرأسمالية، فإن الماركسية لا تستطيع أن تمتد بجذورها، وسوف تتكشف الثورة ويخونها العمال الذين كان ينبغي على الثورة أن تقاتل باسمهم. وبتعابير إنجيلية، فإن كلمة ماركس، وهي بذرة الثورة، قد سقطت على تربة مسيحية صلبة

(*) تروتسكي، ليون: (١٨٧٩-١٩٤٠) وهو منظر ثوري روسي. أحد قواد الثورة البولشفية.

(**) بيلسودسكي، جوزيف (١٨٦٧-١٩٣٥) قائد وسياسي بولندي ثوري وكان أول رئيس (١٩١٨-١٩٢٢) لبولندا المستقلة.

كالصخر وماتت. وبعد أن رهن الماركسيون كل شيء على الطبقة العاملة، فإنهم بذلك قد راهنوا على الحصان الخاسر.

وأول تابع منشق كان هو الهنغاري جورج لوكاش، وهو عميل للكومنترن(*)، جلب له كتابه التاريخ والوعي الطبقي اعترافا بصفته منظرا ماركسيا ينافس ماركس نفسه. وقال لوكاش "أنا رأيت أن التدمير الثوري للمجتمع هو الحل الأول والوحيد، وأن قلب القيم في كل أنحاء العالم لا يمكن أن يحدث بدون إعدام القيم القديمة وخلق قيم جديدة من قبل الثوريين."[٤] وبصفته نائب المسؤول عن الثقافة في نظام بللا كون، وضع لوكاش موضع التنفيذ أفكاره التي وصفها هو بنفسه بأنها "شيطانية" فيما صار يعرف باسم "الإرهاب الثقافي."

وليضع جزءاً من هذا الإرهاب نظم وأسس نظاما تربويا جنسيا متطرفا في المدارس الهنغارية. وأعطي الأطفال دروسا عن الحب الحر، والجماع الجنسي، وعن الطبيعة القديمة لأخلاق الأسرة من الطبقة الوسطى، وعن تقادم العهد بنظام الزواج الآحادي، وأن الدين لا علاقة له، وهو ما يحرم الإنسان من كل

(*) الكومنتيرن: كلمة منحوتة من كلمتي: «الشيوعي الدولي» أسس لينين هذا التشكيل (١٩١٩) ليتولى من خلاله قيادة الحركات الاشتراكية في العالم. وقد فشلت جهوده وتم حله (١٩٤٣).

ملذاته. ودُعيت النساء كذلك إلى أن يثرن ضد الأعراف الجنسية في ذلك الوقت.[٥]

وغرض لوكاش من تعزيز الإباحية بين النساء والأطفال كان تدمير الأسرة، وهي قلب مؤسسة النصرانية والثقافة الغربية. بعد خمسة عقود من هروب لوكاش من هنغاريا، تم اعتناق أفكاره بحماسة من قبل جيل ازدهار ولادات الأطفال في "الثورة الجنسية."

والتابع الثاني كان هو أنطونيو غرامشي(*)، وهو شيوعي إيطالي بدأ مؤخرا بنيل الاعتراف الذي يستحقه بصفته أعظم استراتيجي ماركسي في القرن العشرين. بعد مسيرة موسوليني إلى روما في العام ١٩٢٢ هرب غرامشي إلى روسيا. ولكنه لم يكن مثل "المغفلين النافعين" ولا مثل "اليسار الطفولي" الذين كانوا موضع سخرية لينين من مثل كاتب أمريكي هو لينكولن ستيفنس يقول "لقد كنت هناك في المستقبل وهو يعمل؟"- بل كان غرامشي ملاحظا حادا رأى أن البلشفية لم تعمل. ومن خلال الإرهاب فقط كان النظام يستطيع أن يفرض الطاعة. واستنتج غرامشي أن اللينينية قد فشلت. إن الشعب الروسي لم يكن قد انقلب ليتبع الشيوعية، إنه يبغضها. إن بلاد الشعب الروسي وعقيدته وأسره وأيقوناته

(*) غرامشي، أنطونيو (١٨٩١-١٩٣٧) وهو منظر سياسي إيطالي. موسوليني حل الحزب الشيوعي واعتقل غرامشي وأبقاه في السجن مدة طويلة.

وروسيا الأم كلها كانت تعني للشعب الروسي أكثر بكثير من أي تضامن عمال دولي. واستنتج غرامشي أن السوفيت كانوا يخدعون أنفسهم. والشعب الروسي لم يتغير. إنهم طائعون فقط لأن المقاومة كانت تعني طرقة على الباب في منتصف الليل ورصاصة في قفا العنق في البدروم أو الغرفة السفلية من قصر لوبيانكا. وحتى القيصر استثار حبا وولاء أكثر من البولشفيك المكروهين.

واستنتج غرامشي أن الأرواح المسيحية للشعب الروسي هي التي منعتهم من اعتناق الثورة الشيوعية. وكتب غرامشي يقول: "إن العالم المتمدن مضت عليه مدة ألفي عام وهو مشبع إشباعا كاملا بالمسيحية، "وإن النظام المؤسس على المعتقدات والقيم اليهودية-المسيحية لا يمكن أن يقلب حتى يتم قطع تلك الجذور.[٦] وإذا كانت المسيحية هي الدرع الحراري للرأسمالية، فللاستيلاء على الغرب، يجب على الماركسيين أن يجتثوا المسيحية من الغرب.

بعد أن صحا غرامشي من الأوهام، وبعد أن أصابه الهلع من ستالين الذي استولى على السلطة بعد موت لينين والذي لم يرق له المفكرون الماركسيون المستقلون، عاد غرامشي إلى وطنه ليقود الحزب الشيوعي الإيطالي. أما موسوليني فكانت لديه فكرة أخرى. فقد سجن غرامشي وأغلق السجن عليه وأضاع مفتاحه. وبعد أن وهنت قوى غرامشي في السجن، وصار قريبا من الموت بسبب

السُل، أطلق سراحه أخيرا، ولكنه مات في العام ١٩٣٧ عن عمر يناهز ٤٦ عاما. ولكن غرامشي في كتابه ملاحظات في السجن ترك خلفه المخططات التفصيلية لثورة ماركسية ناجحة في الغرب. وثورتنا الثقافية الخاصة بنا كان يمكن أن تأتي مباشرة من صفحاته. "في الشرق"، كتب غرامشي عن روسيا:

> كانت الدولة هي كل شيء، وكان المجتمع المدني قائماً منذ الأزل... في الغرب كان هناك علاقة مناسبة بين الدولة والمجتمع المدني، وعندما ارتعشت الدولة ظهر هيكل قوي للمجتمع المدني فورا. الدولة [في الغرب] لم تكن إلا الخندق الخارجي، وخلف هذا الخندق كان يقف هناك نظام قوي من القلاع والسدود الترابية الحاجزة.[٧]

وأفضل من الاستيلاء على السلطة أولا وفرض ثورة ثقافية من فوق، هو، كما يحاجج غرامشي، أنه يجب على الماركسيين في الغرب، أن يغيروا الثقافة أولا، ثم إن السلطة سوف تسقط في أحضانهم مثل ثمرة ناضجة. ولكن تغيير الثقافة يتطلب "مسيرة طويلة عبر المؤسسات" -الفنون، والسينما، والمسرح، والمدارس، والكليات، والندوات، والصحف، والمجلات، والواسطة الإلكترونية الجديدة، والراديو. وكان يجب السيطرة عليها كلها الواحدة منها بعد الأخرى، وأن تقلب وتُسيس إلى أن تكون وكالة للثورة. ثم يمكن بعدئذ للناس أن يثقفوا ببطء ليفهموا الثورة بل ليرحبوا بها.

لقد حض غرامشي زملاءه الماركسيين على أن يشكلوا جبهات شعبية عامة مع المثقفين الغربيين الذين يشاركون الماركسيين احتقارهم للمسيحية وللثقافة البرجوازية والذين يشكلون عقول الشباب. رسالة إلى الرفاق: "إنها الثقافة، أيها الأغبياء؟" ولأن الثقافة الغربية هي التي ولدت الرأسمالية وصانتها، وإذا كان بالإمكان هدم تلك الثقافة، فإن النظام يسقط من تلقاء نفسه. على غلاف كتابه في العام ١٩٧٠ والذي كان نصرا سريعا وكتابا من أفضل الكتب مبيعا تخضير أمريكا، وهو بيان الثقافة المضادة ردد المؤلف تشالز رايخ كالببغاء ما قاله غرامشي بدقة:

> هناك ثورة قادمة. ولن تكون مثل ثورات الماضي. إنها سوف تتجذر وتنبثق في الأصل مع الفرد ومع الثقافة، وسوف تُغير البنية السياسية بصفتها آخر فعل فقط. إنها لن تتطلب العنف لكي تنجح. ولا يمكن أن تقاوم بنجاح بالعنف. إنها الآن تنتشر بسرعة مثيرة للتعجب، ومنذ مدة فإن قوانيننا، ومؤسساتنا، وبنيتنا الاجتماعية تتغير بالتبعية ...
>
> **هذه هي ثورة الجيل الجديد.**[٨]

لقد ثبت أن فكرة غرامشي عن كيفية صنع ثورة في مجتمع غربي كانت فكرة صحيحة. إن نظام لينين قد هز العالم طوال سبعين سنة، ولكن ثورته في نهاية المطاف فشلت، وانهار نظامه.

وفي النهاية، بقي حزب لينين وستالين الشيوعي على ما كان عليه من البداية، وهو مؤامرة من مجرمين سياسيين استخدموا أفكار ماركس وبلاغته لإخفاء ما كانوا يعنونه حقيقة: وهو السلطة المطلقة. لقد مات نظام لينين بغيضا غير مأسوف عليه. ولكن الثورة الغرامشية تتدحرج متقدمة، وهي إلى هذا اليوم، مستمرة في اكتساب ملتزمين بها.

مدرسة فرانكفورت تأتي إلى أمريكا

في العام ١٩٢٣، أنشأ لوكاش وأعضاء من الحزب الشيوعي الألماني، في جامعة فرانكفورت، معهدا للماركسية وفق نموذج معهد ماركس -أنجلز في موسكو. وبعد بعض التأمل، استقروا على اسم أقل استفزازا، وهو معهد للبحوث الاجتماعية. وبعد مدة وجيزة صار يعرف ببساطة على أنه مدرسة فرانكفورت.

وفي العام ١٩٣٠، صار مدير ذلك المعهد هو ماكس هورخيمر، وهو مرتد ماركسي ومعجب بالماركيز دو ساد. وهورخيمر أيضا كان قد استنتج بأن ماركس كان مخطئا. وأن الطبقة العاملة لم تكن ترتقي إلى دورها بصفتها طليعة الثورة. ومن قبل ذلك الوقت، كان العمال الغربيون ينتقلون بسعادة إلى الطبقة الوسطى، البورجوازية

الكريهة. لقد خذلوا الماركسيين، الذين ما كانوا ليصابوا بالذهول والإحساس بالمفاجأة من أحداث وول ستريت في أيار مايو ١٩٧٠، عندما ضُرب الراديكاليون والطلاب المحتجون على عدوان نكسون وتدخله في كمبوديا، على أيدي عمال البناء من اتحاد نقابات البناء برئاسة بيت بيرنّان الذي نصبه نكسون بعد ذلك وزيرا للعمل لديه.

وبناء على توجيه هورخيمر بدأت مدرسة فرانكفورت تعيد ترجمة الماركسية إلى تعابير ثقافية. ورُميت الكتيبات القديمة عن ميدان المعركة، وكتبت كتيبات جديدة. بالنسبة إلى الماركسيين القدامى، كان العدو هو الرأسمالية، أما لدى الماركسيين الجدد، فالعدو هو الثقافة الغربية. وبالنسبة إلى الماركسيين القدامى، كان الطريق إلى السلطة هو الإطاحة العنيفة بالنظام، مثلما حدث في باريس في العام ١٧٨٩ وكما حدث في سانت بطرسبيرغ في العام ١٩١٧. وبالنسبة إلى الماركسيين الجدد، فالطريق إلى السلطة كان غير عنيف ويتطلب عقودا من العمل الصبور. سيأتي النصر فقط بعد أن تكون المعتقدات المسيحية قد ماتت في روح الإنسان الغربي. وهذا سيحدث فقط بعد أن يكون قد تم الاستيلاء على مؤسسات الثقافة والتعليم وبعد أن تكون هذه المؤسسات قد جندت على يد حلفاء الثورة وعملائها. احتلوا المؤسسات الثقافية للغرب، وهي "القلاع والسدود الترابية، " وسوف تسقط الدولة، وهي "الخندق الخارجي" بدون قتال.

ولكن بالنسبة إلى الماركسيين القدامى والجدد معا، على كل حال، بقي تعريف الأخلاقيات كما يلي: ما يتقدم بالثورة فهو أخلاقي، وما يعوقها فهو ليس أخلاقيا. وكما يكتب العلامة جون فونت من معهد هدسون ويقول: إن غرامشي اعتقد بـ

"التاريخانية المطلقة، " وتعني أن الأخلاق، والقيم، والحقيقة، والمعايير، والطبيعة الإنسانية نفسها هي كلها منتجات لعصور تاريخية مختلفة. وليس هناك معايير أخلاقية مطلقة تعتبر صادقة بشكل شامل لكل بني البشر خارج سياق تاريخي محدد، بل الأصح هو أن الأخلاقيات "تبنى اجتماعيا."[٩]

وعندما قال رونالد ريغان بشكل عفوي قولته المشهورة بأن السوفيت "يحتفظون لأنفسهم بالحق في أن يكذبوا، وأن يسرقوا، وأن يخدعوا، " فإنه قد أصاب كبد الحقيقة التي لا يستطيع أن يطعن فيها ماركسي أمين طعنا قويا، على الرغم من أن تلك الملاحظة كادت تسبب تقريبا انهيارا عصبيا جماعيا في وزارة الخارجية.[١٠]

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، التحق الناقد الموسيقي ثيودور أدورنو(*)، وعالم النفس إريك فروم(**)، وعالم الاجتماع ويلهليم

(*) أدورنو، ثيودور: (١٩٠٣-١٩٦٩)، عالم اجتماع وفيلسوف ألماني.

(**) إريك فروم: (١٩٠٠-١٩٨٠) كاتب أمريكي ألماني المولد، وكان محللا نفسيا أكد على دور التكييف الاجتماعي في السلوك الإنساني.

رايخ(*) بمدرسة فرانكفورت. ولكن التاريخ تدخل بفظاظة في العام ١٩٣٣. فقد صعد أدولف هتلر إلى السلطة في برلين، وبما أن الشخصيات البارزة القائدة لمدرسة فرانكفورت كانوا يهودا وماركسيين، فإنهم لم يكونوا مناسبين على نحو جيد للرايخ الثالث. فحزمت مدرسة فرانكفورت أيديولوجيتها وهربت إلى أمريكا. وغادر معها أيضا طالب جامعي متخرج اسمه هربرت ماركيوز(**)، وبمساعدة من جامعة كولومبيا، أقاموا مدرسة فرانكفورت الجديدة في مدينة نيويورك وأعادوا توجيه مواهبهم وطاقاتهم لإضعاف ثقافة البلد التي منحتهم ملجأ.

ومن بين الأسلحة الجديدة للنزاع الثقافي التي طورتها مدرسة فرانكفورت كان سلاح النظرية النقدية. ويظهر الاسم رحيما بما فيه الكفاية، ولكنه يعبر عن ممارسة يمكن أن تكون أي شيء غير أن تكون رحيمة. وقد عرف أحد طلاب النظرية النقدية هذه النظرية

(*) ويلهليم رايخ: (١٨٩٧-١٩٥٧) محلل نفسي نمساوي نظّر بأن الكبت الجنسي هو مصدر العديد من المشكلات النفسية والاجتماعية. وقد قاطع فرويد وترك ألمانية النازية واستقر في مدينة نيويورك مات في السجن وهو يقضي حكما لمدة سنتين لازدرائه للمحكمة وخرقه للقانون.

(**) هربرت ماركيوز: (١٨٩٨-١٩٧٩) فيلسوف سياسي أمريكي ألماني المولد. أحد مؤسسي معهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي هرب من النازيين (١٩٣٤) إلى الولايات المتحدة. علم في جامعة هارفارد وغيرها ثم صار (١٩٦٥) أستاذ الفلسفة في جامعة كلفورنيا في ساندیغو. وقد عرف بتركيبه للأفكار الماركسية والفرودية وأفكار هيغل.

بأنها "جوهريا نقد تدميري لكل العناصر الرئيسية للثقافة الغربية، شاملا المسيحية، والرأسمالية، والسلطة، والأسرة، وأبوية الأسرة، والتراتبية، والأخلاقيات، والتقاليد، والضبط الجنسي، والولاء، والوطنية، والقومية، والوراثة، ومركزية العرق الإثني، والأعراف، والمحافظة."[١١]

باستخدام النظرية النقدية، على سبيل المثال، يكرر الناشط الثقافي الماركسي ويكرر مرارا التهمة بأن الغرب مذنب بجرائم إبادة الجنس ضد كل حضارة وثقافة واجهها. وبموجب النظرية النقدية، يكرر المرء ويكرر أن المجتمعات الغربية هي أكبر مستودعات للتاريخ تحوي التعصب العرقي، والتمييز بين الجنسين، والتمييز ضد المحليين، وكراهية الغرباء، وكراهية الشواذ جنسيا، واللاسامية، والفاشية، والنازية. وبموجب النظرية النقدية فإن جرائم الغرب تنبع من شخصية الغرب كما شكلتها المسيحية. وأحد الأمثلة الحديثة هو "سياسات الهجوم، " حيث "البدائل" وحيث "الدكاترة الممثلون لغيرهم" لا يدافعون عن مرشحيهم، ولكنهم يهاجمون ويهاجمون ضد المعارضة. ومثال آخر من النظرية النقدية هو الهجوم الذي لا يرحم ضد البابا بيوس الثاني عشر بوصفه متواطئا في الهولوكوست أو المحرقة من، دون الاهتمام بالمجلدات التي تقدم البينات التي تظهر أن ذلك الاتهام كذبة.

وفي نهاية المطاف تبعث النظرية النقدية على "التشاؤم الثقافي، " وهو إحساس بالغربة، وباللا أمل، وباليأس بحيث أن الشعب، وإن كان مرفها وحرا يتوصل إلى أن يرى مجتمعه وبلده بصفته بلدا قمعياً، وشرا، وغير مستحق لولائه وحبه. لقد اعتبر الماركسيون الجدد التشاؤم الثقافي شرطا مسبقا ضروريا للتغيير الثوري.

وتحت تأثير النظرية النقدية، أقنع الكثيرون من جيل الستينيات أنفسهم بأنهم كانوا يعيشون في جحيم لا يطاق، وهم كانوا أكثر جيل محظوظ في التاريخ. في كتاب تخضير أمريكا الذي سحر السناتور ماكغفرن، والقاضي دوجلاس، وواشطنون بوست، تحدث تشارلز رايخ عن "جو شامل من العنف" في المدارس الثانوية الأمريكية.[١٢] كان هذا قبل ثلاثين عاما من كولمباين، ولم يكن رايخ يعني الأسلحة والسكاكين:

> الامتحان أو الاختبار هو شكل من أشكال العنف. التمارين الرياضية الإلزامية لمن هو محرج أو خائف هي شكل من أشكال العنف. إن المطلب الذي يقضي بأن على الطالب أن يحصل على ترخيص ليسير في الممر هو عنف. والحضور الإجباري في الفصل الدراسي، والدراسة الإجبارية في قاعة الدراسة هما عنف.[١٣]

إن إريك فروم في كتابه الفرار من الحرية وويلهلم رايخ في

كتابه النفسية الجماهيرية للفاشية وكتابه الثورة الجنسية يعكسان النظرية النقدية. ولكن أكثر الكتب التي سبق أن نشرتها مدرسة فرانكفورت تأثيراً، كان هو كتاب الشخصية السلطوية. إن هذا الكتاب هو زينة المذبح لمدرسة فرانكفورت، وفيه استبدل بحتمية كارل ماركس الاقتصادية الحتمية الثقافية. فإذا كانت الأسرة مسيحية بعمق وكانت رأسمالية، ويحكمها أب سلطوي، فإن بإمكانك أن تتوقع من الأطفال أن ينشؤوا متعصبين عرقيا وفاشيين. ويصف تشالز سايكس، وهو زميل كبير في مركز ويسكونسن لبحوث السياسات، يصف كتاب الشخصية السلطوية بأنه "قرار اتهام لا يساوم للحضارة البرجوازية، مع التشويه الذي يرى أن ما كان يعتبر مجرد طراز قديم من قبل نقاد سابقين صار يصرح به الآن على أنه فاشستي ومنحاز نفسيا."[١٤]

وفي الوقت الذي جرم فيه ماركس الطبقة الرأسمالية، جرمت مدرسة فرانكفورت الطبقة الوسطى. أما أن الطبقة الوسطى هي التي ولدت الديمقراطية وأن بريطانيا الطبقة الوسطى كانت تقاتل هتلر عندما كان الرفاق من مدرسة فرانكفورت في موسكو يتعايشون مع هتلر فذلك لا يهم. لا، ولا يهم أن أمريكا الطبقة الوسطى هي التي أعطت أدورنو وزملاءه ملجأ آمنا عندما هربوا من النازي. الحقيقة لا تهم، لأن هؤلاء كانوا دعاة ماركسيين، وهم وحدهم كانوا يُعرِّفون الحقيقة.

بعد أن أكتشف أدورنو الأرض التي تعشش فيها الفاشية وهي الأسر الأبوية، حدد أدورنو الآن البيئة الطبيعية للفاشية وهي: الثقافة التقليدية: "إنها أطروحة معروفة جيداً وهي أن القابلية للتأثر بالفاشية ظاهرة أكثر ما تميز الطبقة الوسطى، أي ـ إنها في الثقافة ـ ومن ثم، فإن الذين ينسجمون أكثر ما يكون الانسجام مع هذه الثقافة سيكونون هم أكثر تحاملا."[١٥].

وقد كتب مرة ادموند بيرك: "إنني لا أعرف كيف أكتب اتهاما ضد شعب بأكمله."[١٦] ولكن أدورنو ومدرسة فرانكفورت، على كل حال، قد فعلوا ذلك بالضبط تماما. فهم أكدوا مباشرة أن الأفراد الذين ينشؤون في أسر يحكمها الأب، والذين هم وطنيون يلوحون بأعلام الوطنية ويتبعون دين الأيام القديمة، هم فاشيست في بداية الظهور وهم نازيون بالقوة والإمكانية. ونظرا لأن الثقافة المسيحية المحافظة تولد الفاشية، فإن الذين ينغمسون انغماسا عميقا في مثل هذه الثقافة يجب أن يراقبوا مراقبة وثيقة من أجل الاتجاهات الفاشية.

هذه الأفكار تم استدخالها إلى النفس من قبل اليسار. ومنذ وقت مبكر في الستينيات من ١٩٦٠، وُصِم المحافظون وشخصيات السلطة الذين شجبوا أو عارضوا ثورة الجامعات بشكل روتيني وصموا، بأنهم "فاشيست". كان أبناء جيل ازدهار المواليد، من دون أن يعلموا، يتبعون نصاً كان يتماشى متوازيا مع خط الحزب الذي وضعته اللجنة المركزية في موسكو في العام ١٩٤٣:

يجب على الأعضاء وعلى منظمات الجبهة باستمرار أن يحرجوا نقادنا، وأن ينزعوا الثقة منهم، وأن يقللوا من قيمتهم. وعندما يصير المعوقون مزعجين جدا يجب أن ندعوهم بالفاشيست، أو بالنازيين أو باللاساميين ... وهذا الارتباط سيصير بعد التكرار الكافي "حقيقة" في أذهان الجمهور.[١٧]

ومنذ الستينيات من ١٩٦٠، كان وصم الخصوم بأنهم كارهون أو بأنهم مرضى عقليا هو أفعل سلاح في ترسانة اليسار. وهذه هي "المعادلة السرية." كما وصفها عالم النفس والمؤلف توماس زاز" :إذا أردت أن تحقر ما يفعله شخص ... فسمه مريضا عقليا."[١٨] خلفها كلها تكمن أجندة سياسية. مجتمعنا المريض يحتاج إلى علاج ليشفيه من انحيازه الباطن. وقد كتب كريستوفر لاش وهو يقوّم دراسات في الانحياز لمدرسة فرانكفورت، والتي منها الشخصية السلطوية وهو أكثر الدراسات شهرة فقال:

إن الغرض والتصور خلف دراسات في الانحياز أملى الاستنتاج بأن الانحياز هو اضطراب نفسي متجذر في بنية الشخصية "السلطوية"، ولا يمكن أن يمحى ويزال إلا بإخضاع الشعب الأمريكي لما يرقى أن يكون علاجا نفسيا جماعيا -بمعاملتهم مثل نزلاء في مصح لغير العقلاء.[١٩]

هذا هو جذر "الدولة العلاجية" -وهي نظام يعاد تعريف الخطيئة فيه بصفتها مرضا، وتصير فيه الجريمة سلوكا ضد

المجتمع، ويحل فيها الطبيب النفسي محل الكاهن. فإذا كانت الفاشية، كما يقول أدورنو، موجودة "في الثقافة" فعندئذ إننا، نحن جميعا، الذين نشأنا في تلك الثقافة القديمة ثقافة الله والوطن من الأربعينيات من ١٩٤٠ ومن الخمسينيات من ١٩٥٠ نحتاج للعلاج لمساعدتنا لنقف وجها لوجه مع الانحيازات والتعصبات التي كنا منقوعين فيها منذ الولادة.

بصيرة أخرى من بصائر هورخيمر وأدورنو كانت هي إدراكهما أن الطريق إلى الهيمنة الثقافية كانت عبر التكييف النفسي، وليس الجدل الفلسفي. ويمكن تكييف أطفال أمريكا في المدارس ليرفضوا معتقدات آبائهم الاجتماعية والأخلاقية بصفتهم متعصبين عرقيا، ويميزون بين الجنسين، ويكرهون الشواذ، ويمكن تكييف الأطفال ليقبلوا الأخلاقيات الجديدة. وعلى الرغم من أن مدرسة فرانكفورت تبقى غير مألوفة لمعظم الأمريكيين، فإن أفكارها معروفة جيدا في كليات إعداد المعلمين منذ الأربعينيات من ١٩٤٠ والخمسينيات من ١٩٥٠.

وقد أكدت المدرسة بشكل جلي أن الأطفال سواء تعلموا حقائق أو مهارات في المدرسة فإن ذلك كان أقل أهمية من تخرجهم مكيفين ليظهروا المواقف الصحيحة. وعندما كتب ألان بلوم في إغلاق العقل الأمريكي أن: "خريجي المدارس الثانوية الأمريكية هم

من بين أكثر الأميين في العالم حساسية، " ويحصلون على أخفض علامات الاختبارات في الأرض في الامتحانات المقارنة، ولكنهم يحصلون على أعلى العلامات للحساسية نحو قضايا مثل البيئة، كان بلوم بذلك يشهد على نجاح مدرسة فرانكفورت[٢٠]. قد يعتبر الآباء أن المدارس العامة اليوم هي فشل مكلف لأن الأطفال لم يبقوا يتعلمون فيها. وبالنسبة لمدرسة فرانكفورت، فالمدارس العامة ناجحة لأن الأطفال المتخرجين منها يبدون كل المواقف الصحيحة. ولدى دخولهم الكلية فإن هؤلاء الطلاب الآن يدخلون جلسات توجيه، يعلمون فيها بالقيم الجديدة التي تقبل في الكليات الجامعية -لجعل عقولهم صحيحة، كما قال الرئيس الإداري للسجن في فيلم كول هاند لوقا.

إلى أي حد كانت الثورة الثقافية ناجحة في محو القيم القديمة وغرس قيم جديدة في أرواح الشباب؟ في الأيام التي تلت بيرل هاربر كانت صفوف المتطوعين في محطات تجنيد الأسطول والجيش والبحرية تمتد لتدور حول الموقع. وكان طلاب الكليات أيضا متمثلين في تلك الصفوف مثلما تمثل الفلاحون. ولكن في الأيام التي تلت المجزرة في مركز التجارة العالمي-وقبل أن يكون جندي أمريكي واحد قد ذهب إلى القتال أو قبل أن يطلق صاروخ كروز واحد على معسكرات إرهابيي القاعدة - كانت قد بدأت التجمعات المضادة للحرب في الحرم الجامعي الأمريكي.

ولكن أهمية المدارس في تكييف عقول الشباب قد تم تخطيها الآن بوسائل الإعلام الجديدة: التلفاز والسينما. كتب ويليم ليند، مدير مركز المحافظة الثقافية في مؤسسة الكونغرس الحر يقول:

> صناعة الترفيه ... قد امتصت امتصاصا كاملا أيدلوجية الماركسية الثقافية وهي تعظ بها بلا نهاية لا بمجرد خطب المواعظ ولكن بالأمثال أيضا: فالنساء القويات يضربن الرجال الضعفاء، والأطفال أحكم من آبائهم، ورجال الدين الفاسدون يعوقهم التائهون بمحاكاتهم، السود من الطبقة العليا يجابهون العنف من البيض من الطبقة الدنيا، اللوطيون الشجعان الذين يعيشون حياة طبيعية. إنها كلها خرافة، قلب للواقع، ولكن وسائل الترفيه جعلتها تبدو حقيقة، حقيقية أكثر من العالم الذي يوجد خلف واجهة الباب الأمامي.[٢١]

ولنقوّم كيف غيرت الثورة الثقافية الطريقة التي نفكر بها، ونعتقد بها، ونتصرف بها، قارن القيم التي عكستها وساندتها أفلام الخمسينيات من ١٩٥٠ مثل: على واجهة الماء، في الظهيرة، وشين، قارنها مع القيم التي تبنتها الأفلام الرئيسية في هذه الأيام. في احتفال جائزة الأكاديمية في العام ٢٠٠٠ كان أكثر فيلمين أحيطا بالاحترام هما الجمال الأمريكي وقواعد بيت عصير التفاح.

في الجمال الأمريكي صور النجم كيفن سبيسي الحياة في ضاحية أمريكية بصفتها أرضا يبابا أخلاقيا. والشرير عضو سابق

في المارينز يكبت رغبته اللواطية، ويجمع تذكارات نازية، ويصير مجنونا بالقتل. وفي قواعد بيت عصير التفاح، يصور مايكل كين شخصا لطيف الكلام ينادي بالإجهاض يقف بلا خوف ضد التعصب في وسط أمريكا. لقد صارت وسائل الإعلام الجماهيرية الأمريكية مدافع الحصار في الحرب الثقافية وصندوق سكنر(*) ضخما لتكييف شباب أمريكا.

في أثناء الخمسينيات، من ١٩٥٠، كانت مدرسة فرانكفورت تفتقر إلى شخصية تشيع الأفكار المدفونة في النثر الدبق، لهورخيمر وأدورنو. وهنا يدخل هيربرت ماركيوز وهو ضابط سابق في مكتب الخدمات الاستراتيجية وأستاذ في جامعة براندیس، وهو رجل لم يكن طموحه مقتصرا على أن يكون رجل فكر بل كان يود أن يكون رجل فعل ثوري. ماركيوز قدم الإجابة عن سؤال هورخيمر: من الذي سيلعب دور البروليتاريا في الثورة الثقافية القادمة؟

مرشحو ماركيوز هم: الشباب المتطرف الراديكالي، ودعاة تحرير المرأة، والسود المتعسكرون، واللواطيون، والمغتربون، واللااجتماعيون، وثوريو العالم الثالث، وكل الأصوات الغاضبة من "ضحايا" الغرب المضطهدين. هذه كانت البروليتاريا الجديدة التي

(*) صندوق سكنر: سمي باسم مخترعه بي. أف. سكنر وهو جهاز تكييف لسلوك الحيوانات الصغيرة مثل الفئران والطيور.

ستقلب الثقافة الغربية. وبين "المقموعين"، وهم المجندون المحتملون لثورته، كان غرامشي نفسه قد شمل كل "الجماعات المهمشة في التاريخ ... لا المظلومين اقتصاديا فقط بل النساء، والأقليات العرقية، والكثير من - "المجرمين" - أيضا."[٢٢] وكان تشارلز رايخ صدى لماركيوز وغرامشي: عندما قال: "إن واحدة من الطرق التي يكافح بها أبناء الجيل الجديد ليشعروا بأنفسهم بأنهم لا منتمين هي أن يتماهوا مع السود، ومع الفقراء، ومع بوني وكلايد، ومع الخاسرين لهذا العالم."[٢٣] ومن الصدف، أنه في عام ١٩٦٨ وهو العام الذي رشح فيه بوني وكلايد، وهو فيلم رومانسي عن قاتلين منحرفين جنسيا، لجائزة الأكاديمية، فإن اثنين من "خاسري" رايخ وهما سرحان سرحان وجيمس إيرل راي حققا الخلود باغتيالهما روبرت كندي والدكتور كينغ.

المجتمعات القديمة هدمت بالكلمات وبالكتب، ولكن ماركيوز اعتقد بأن الجنس والمخدرات كانا سلاحين أفعل. في كتابه الشهوة والحضارة، يحض ماركيوز على اعتناق عام لمبدأ اللذة. وقال ماركيوز: أرفض النظام الثقافي بالكلية (وكان هذا هو "الرفض العظيم" له)، ونحن نستطيع أن نخلق عالما "متعدد أشكال الشذوذ."[٢٤] وفي الوقت الذي تدفقت فيه أجيال ازدهار المواليد كالفيضان إلى الجامعات حانت لحظة ماركيوز المناسبة. واستهلكت

كتب ماركيوز. وصار شخصية شعائرية للعبادة. وعندما ثار الطلاب في باريس في العام ١٩٦٨ حملوا رايات تنادي: "ماركس، ماو، ماركيوز."

وكان الشعار الذي ألهمه ماركيوز نفسه هو "مارس الحب لا الحرب." وفي كتاب الرجل ذو البعد الواحد دعا ماركيوز إلى دكتاتورية تعليمية. وفي "التسامح القمعي" دعا إلى تسامح جديد سماه "التسامح المحرِّر" وهو الذي يستتبع "عدم التسامح مع الحركات من اليمين، والتسامح مع الحركات من اليسار."[٢٥] إن طلاب الستينيات، وهم ممتلئون بقناعة ماركيوزية، هتفوا ضد المدافعين عن جهد حرب الولايات المتحدة في فيتنام، ورحبوا بالراديكاليين الذين كانوا يلوحون بأعلام فيتكونغ. وفي بعض مواقع الحرم الجامعي، يستطيع اليوم القتلة الذين أطلق سراحهم ليحسنوا سلوكهم أن يجدوا جماهير أكثر استقبالا مما يستطيع أن يجده المحافظون. إن المعيار المزدوج الذي يغضب منه اليمين، والذي يسمح بأن يُفضح المحافظون ويُعلقوا من أجل خطاياهم التي يغفر مثلها لليسار، هو معيار "التسامح القمعي"، وهو موضوع قيد العمل. إن ماركيوز لم يخف ما أراده. ففي مجتمع الضواري كتب يقول:

> يستطيع المرء أن يتكلم بحق عن ثورة ثقافية، نظرا لأن الاحتجاج موجه نحو المؤسسة الثقافية كلها ... هناك شيء واحد نستطيع أن

نقوله بتأكيد كامل. إن الفكرة التقليدية عن الثورة وإن الإستراتيجية التقليدية عن الثورة قد انتهت. إن هذه الأفكار طراز قديم... وإن ما يجب أن نتولاه هو نوع من التفكيك الناشر والمبعثر للنظام[٢٦]

إن "تفكيك النظام تفكيكاً شاملاً" لا يعني شيئا أقل من إلغاء أمريكا. إن ماركيوز مثل غرامشي قد تجاوز ماركس. إن الرؤية الماركسية القديمة التي ترى العمال وهم يثورون لقلب حكامهم الرأسماليين هي رؤية تنتمي إلى الماضي. أما اليوم، فإن هيربرت ماركيوز وفيالقه يضعون نهاية لحضارة غربية فاسدة عن طريق احتلال مؤسساتها الثقافية وتحويلها إلى وكالات لإعادة التربية والثورة. وكما كتب روجر كمبال، وهو مؤلف ومحرر، كتب في نيوكراتيريون يقول:

في سياق المجتمعات الغربية، فإن "المسيرة الطويلة عبر المؤسسات" كانت تعني - في كلمات هيربرت ماركيوز - "العمل ضد المؤسسات الراسخة في الوقت الذي يعمل في هذه المؤسسات." وبهذه الطريقة بالدرجة الرئيسية أي - بواسطة الاندساس والاختراق أكثر مما هو بواسطة المواجهة - انتصرت الأحلام المضادة للثقافة التي حلم بها راديكاليون مثل ماركيوز.[٢٧]

وبالنسبة إلى الماركسيين الثقافيين ليس هناك قضية تعلو في

مرتبتها أكثر من إزالة العائلة، فقد احتقروا العائلة بصفتها دكتاتورية وحاضنة للتمييز الجنسي ضد المرأة وللظلم الاجتماعي.

والعداء للعائلة التقليدية لم يكن جديدا على الماركسيين. ففي الأيديولوجية الألمانية كتب ماركس نفسه أن الذكور الأبويين يعتبرون الزوجات والأطفال بالدرجة الأولى ملكية لهم. وفي أصل الأسرة، والمِلْكية الخاصة، والدولة، عمم انغلز القناعة النسوية بأن كل التمييز ضد النساء يأتي من العائلة الأبوية. وحاجج إريك فروم أن الاختلافات بين الجنسين لم تكن موروثة، بل هي اختراع من قصص الثقافة الغربية. وقد صار فروم من الآباء المؤسسين لحركة التسوية الكاملة بين الجنسين. وبالنسبة إلى ويلهلم رايخ فإن "العائلة السلطوية هي الدولة السلطوية بشكل مصغر... وإن الإمبريالية العائلية ... يعاد إنتاجها في الإمبريالية القومية." وبالنسبة إلى أدورنو فإن العائلة الأبوية هي مهد الفاشية.

ولكي تقتطع مدرسة فرانكفورت رأس الأسرة والأب هو رأسها دعت إلى بدائل من الأمومة، حيث الأم هي التي تحكم الفروع، و "نظرية الخنثى، " حيث يكون دورا الذكر والأنثى في الأسرة قابلين للتبادل، بل وأن يعكسا. ولعل الأنثى الملاكمة، والنساء في القتال، والنساء بأعمال الرابي والأسقف، والله بصفته هي، وفلم جي. آي. جين لديمي مور حيث تقوم فيه سيغورني ويفر وهي تشبه رامبو

بتهدئة عسكري مرعوب وذليل في فلم الغرباء، وكل الأفلام والعروض التي تصور النساء بوصفهم خشنات وعدوانيات وتصور الرجال بوصفهم حساسين وعرضة للعطب. لعل هذه الأمثلة كلها تشهد على نجاح مدرسة فرانكفورت والثورة النسوية التي ساعدت على ولادتها كالقابلة.

ومثل لوكاش، اعتقد ويلهلم رايخ أن الطريق إلى تدمير الأسرة كان عبر سياسات جنسية ثورية وتعليم جنسي مبكر. ويدين ظهور التعليم الجنسي في المدارس الابتدائية في أمريكا إلى لوكاش، ورايخ، ومدرسة فرانكفورت.

في موت الغرب، يجب أن تعتبر مدرسة فرانكفورت بصفتها متهما أولا ومتآمرا رئيسا. إن الهجوم الدعائي على الأسرة الذي دعت إليه هذه المدرسة أسهم في انهيار الأسرة. والأسر النووية اليوم تمثل أقل من ربع بيوت الولايات المتحدة الأمريكية. وتحرير النساء من الأدوار التقليدية للزوجة والأم، وهو التحرير الذي كانت مدرسة فرانكفورت من بين أول من تبناه، قاد إلى إهانة هذه الأدوار والحط من قدرها في المجتمع الأمريكي.

إن ملايين النساء الغربيات الآن يشاركن الحركة النسوية في عدائها للزواج والأمومة. والملايين منهن تبنين جدول أعمال الحركة

وليس لديهن النية في الزواج ولا الرغبة في الأطفال. وإن اعتناقهن لمبدأ اللذة الذي جاء به ماركيوز، و مناوباتهن ودورهن في الثورة الجنسية، يعني زواجات قد تأجلت. وكما يبين الطلاق ومعدلات الولادات فان الزواجات التي دخل بها الأزواج هي زواجات أقل استقرارا وأقل ثمرة. في عملية إفراغ الأمم الأوروبية من السكان، حتى في البلاد الكاثوليكية القديمة منها، فإن استخدام موانع الحمل شامل تقريبا. إن منع الحمل، والتعقيم، والاجهاض، والقتل بحجة الرحمة بالمريض، هي الفرسان الأربعة في "ثقافة الموت" التي سوف يحمل عليها البابا حملة شعواء حتى آخر أيامه. إن حبة منع الحمل والواقي الذكري صارا بمثابة المطرقة والمنجل للثورة الثقافية.

في الخمسينيات من ١٩٥٠، هدد خروتشوف بقوله: "سوف ندفنكم." ولكننا نحن الذين دفناه. ومع ذلك، فإذا لم يجد الإنسان الغربي طريقة لوقف الانهيار في معدل الولادة فإن الثقافة الماركسية سوف تنجح حيث فشلت الماركسية السوفيتية، وذلك لأن المجلس البابوي للأسرة، في تقرير ١٩٩٨ عن إفراغ أوروبا من السكان، قد ربط التشاؤم الثقافي مباشرة بعدم الخصوبة.

> لا يمكن أن نتوقع عودة إلى معدل خصوبة أعلى في تلك البلدان التي تتنازل فيها الخصوبة في الوقت الحاضر إلا إذا كان هناك

تغيير فقط في "المزاج" في هذه البلاد، وانتقال من التشاؤم الحاضر إلى حالة ذهنية يمكن أن تقارن بعصر "ازدهار المواليد"، في أثناء عصر إعادة البناء بعد الحرب العالمية الثانية.[٢٨]

ولكن مثل هذا "التغيير في المزاج" لا يرى ولو من بعيد في القارة القديمة، حيث تستمر معدلات الولادة بالهبوط. وفي المساعدة لتقويض الأسرة وللتحريض على التشاؤم الثقافي تستطيع مدرسة فرانكفورت أن تدعي حصة من الفضل في أنها ساعدت في انتحار الغرب.

وهكذا ساعدت عصبة ضئيلة من المرتدين الماركسيين على تهديم الثقافة الأمريكية وبدأت في تفكيك جمهوريتنا. لقد كتب على شاهد قبر المهندس المعماري كريستوفر رن: "أيها القارئ، إذا كنت تبحث عن نصب تذكارية فانظر حولك."[٢٩] وهكذا يمكن القول عن لوكاش، وغرامشي، وأدورنو، وماركيوز بأنهم أربعة صنعوا ثورة.

في غضون ثلث قرن، فإن ما كان يدان بوصفه الثقافة المضادة، صار هو الثقافة المهيمنة، وما كان هو الثقافة المهيمنة صار، بتعبير جيرترود هيملّفارب، هو "الثقافة المنشقة."[٣٠] لقد صارت أمريكا دولة أيديولوجية، "واستبدادية ناعمة، " حيث تفرض الأرثوذكسية الجديدة لا بعملاء الشرطة ولكن بالمحققين عن الثقافة الشعبية. ونحن نرى ذلك في المطلب الإلزامي من أجل "تدريب الحساسية"

في العسكرية، وفي العمل التجاري، وفي الحكومة. افتح التلفاز وراقب. إن قيم الثورة تهيمن على الوسيلة الإعلامية. وإن برنامج التصحيح السياسي (للعرق والجنس واللون ...) هو الذي يحكم. إن تحدي أرثوذوكسيتنا الجديدة يوصف بأنه "خطاب بغضاء، " وقلة الاحترام لعقائدها يوصف بأنه علامة على المرض العقلي. "خذ جون روكر إلى طبيب نفسي!" وقبل بضع سنوات مضت وصف مهرجٌ الجامعات الأمريكية بأنها "جزر من الشمولية في بحر من الحرية." أما الآن فحتى البحر صار غير مضياف. وقد تكلمت إيملي ديكنسون(*)عن وقتنا مثلما تكلمت عن وقتها هي عندما قالت:

وافِق - تكن أنت العاقل -
اعترض - تكن أنت الخطر فورا -
وتعالج بالسلاسل.[٣١]

إن التصحيح السياسي هو الثقافة الماركسية، إنه نظام لمعاقبة الانشقاق وللوصم بالعار للهرطقة الاجتماعية مثلما عاقب التحقيق الهرطقة الدينية. وعلامتها التجارية هي عدم التسامح. وبتصنيف معارضيها بصفتهم مبغضين أو مرضى عقليا يكتب الصحفي بيتر

(*) إيملي دكينسون: (١٨٣٠-١٨٨٦) شاعرة أمريكية عاشت بعزلة في بيتها في أمهيرست مسّاشوسِتس، حيث كتبت قصائدها المفعمة بالعمق العاطفي والذكاء اللماح. ولم ينشر أول ديوان من شعرها حتى ١٨٩٠.

هيتشنز في رثائه لبلاده، إلغاء بريطانيا، فيقول إن النظام الجديد يقلد طرق الاتحاد السوفيتي في معهد سيربسكي(*) الذي كان يصنف المنشقين السياسيين مثل ناتان شارانسكي بصفتهم غير عقلاء قبل أن يغلق عليهم أبواب المستشفى النفسي.[٣٢] وما يصفه الأمريكيون "بتعبيرهم العرضي ... التصحيح السياسي، " هو كما يقول هيتشنز "أكثر نظام فكري غير متسامح حكم الجزر البريطانية منذ عهد الإصلاح."[٣٣] مثلما هو الحال في الولايات المتحدة.

إن معارضة العمل الإيجابي يصف المرء بأنه عرقي. والإصرار على أن هناك أدواراً في المجتمع غير مناسبة للنساء، من مثل طيار في حاملات الطائرات البحرية، يصم المرء بأنه يميز بين الجنسين. وإذا كنت تعتقد أن الهجرة أعلى بكثير جدا من قدرة تماسكنا الاجتماعي، فإنك توصف بأنك محلي أو كاره للأجانب. في العام ١٩٧٣، رفعت الجمعية الأمريكية للطب النفسي صفة اللواطية من القوائم بوصفها اضطرابا مرضيا، وكان ذلك تحت تهديد مليشيات حقوق اللواطيين. وأي إنسان يعتبر اللواطية الآن اضطرابا مرضيا يعاني هو نفسه من مرض في الروح يدعى كراهية اللواطيين.

لقد قال البابا يوحنا بول الثاني"إن الأفعال اللواطية هي ضد قانون الطبيعة، " قال ذلك في الوقت الذي كان فيه الآلاف يسيرون

(*) معهد سيربسكي: مستشفى أمراض عقلية في موسكو.

في اليوم العالمي للاعتزاز اللواطي في روما.[٣٤] وقال "إن الكنيسة لا تستطيع أن تُسكت الحقيقة، لأن هذا ... لن يساعد على تمييز ما هو خير مما هو شر."[٣٥] وإعادة التأكيد هذه للتعاليم الأخلاقية الكاثولوكية تسم البابا وتسم كل الذين يقبلون هذه التعاليم بأنها صحيحة، بأنهم يكرهون اللواطيين. ويسمي العالم والمؤلف بول غوتفريد ذلك: "نزع الإنسانية عن الانشقاق."[٣٦]

الكلمات أسلحة كما قال أورويل. وعلى التقليديين حتى الآن أن يكتشفوا إجراءات مضادة فعالة. عندما تصف عدوا بأنه عرقي أو فاشي فإنك لا تبقى محتاجا إلى أن تجيب على حججه. ويجب عليه أن يدافع عن شخصيته. وفي محكمة القانون، يكون المتهم بريئا حتى تثبت إدانته. ولكن إذا كانت التهمة هي التمييز العرقي، أو كراهية اللواطيين، أو التمييز بين الجنسين، فهناك اليوم افتراض للإدانة. والبراءة هي التي يجب أن يثبتها المتهم بدون أي شك معقول.

لقد سمع أورويل كلمة "فاشي" تستخدم مرات عديدة فافترض أنه إذا قال جونز لسميث إنه فاشي، فإن جونز كان يعني: "أنا أكره سميث!" ولكن إذا قال جونز: "أنا أكره سميث" فإنه يكون بهذا معترفا بكراهية غير مسيحية. إنه بقوله لسميث فاشي، لا يحتاج أن يشرح لماذا هو يكره سميث أو لا يستطيع أن يبذ سميث في الجدال، لقد أجبر سميث على أن يبرهن على أنه لم يكن معجبا

قريبا من أدولف هتلر. لقد كان هوي لونغ محقا، عندما تأتي الفاشية إلى أمريكا فإنها سوف تأتي باسم مناهضة الفاشية.[٣٧]

إن القول بأن لوكاش، وغرامشي، وأدورنو، وماركيوز، ومدرسة فرانكفورت كان لهم تأثير هائل على تاريخ أمريكا الثقافي والفكري هو قول لا ينكر. ولكنهم، على غير غرار البولشفيك، لم يكتسحوا القصر الشتوي، ولم يقبضوا على زمام السلطة، ولم يفرضوا أفكارهم بالقوة والرعب، ولم يكونوا عمالقة مثل ماركس الذي قدم له الرجال البيعة والطاعة. بل إن قلة حتى من الأمريكيين تعرف من كان أولئك. ما من واحد منهم، ولا حتى ماركيوز كان مثل القديس بطرس، أو لوثر، أو وزلي. لقد كانوا مثقفين مارقين وأشخاصاً غير متكيفين أخلاقيا، نعم، هذا صحيح، ولكنهم كانوا أيضا رجالا فكروا "خارج الصندوق" ووضعوا في التداول أفكارا عن الكيفية التي يمكن بها إطلاق ثورة ناجحة في الغرب، ضد الغرب. وانتصرت أفكارهم. إن نخب أمريكا، من الذين قد لا يعرفون اليوم حتى من كان مفكرو فرانكفورت أولئك، قد انجذبوا إلى أفكارهم مثلما تنجذب القطط إلى حشيشة القط.

إن الأمريكيين الذين يقبلون اليوم هذه الأفكار لا يستطيعون أن يعرفوا أنها كانت قد فرخت في حاضنة ماركسية في ألمانيا وايمار أو أنها أفكار فُكر فيها في سجن فاشستي في إيطاليا موسوليني، أو أن

غـرض هذه الأفكار كـان هدم ثقـافـتنا وقلب حـضـارتنا. ولكن هذا يستدعي السؤال: لماذا كانت أمريكا الستينيات من ١٩٦٠، إذا كانت ما تزال بلدا مغموسا في تراثها اليهودي المسيحي، وتاريخها، وتقاليدها، ومعتقداتها، لماذا كانت متقبلة لمثل جدول الأعمال الثوري هذا؟

صحيح، أن قطاعا صغيرا من نخبة أمريكا، قبل وفي أثناء الكساد العظيم، صار متواطئاً في ما سماه المؤلف الفرنسي جولين بندا خيانة المثقفين.[٣٨] لقد احتقروا أمريكا المسيحية الرأسمالية التي عاشوا فيها. ولكن لماذا تجذرت أفكار الخونة الثقافيين في أمريكا الوسط؟ لماذا اجتذبوا أتباعا بين أطفال من الجيل الأعظم الذي هزم هتلر؟ ولماذا ما يزال العديد جدا من الشباب يقبلها؟ هل كانت أمريكا أخلاقيا شاردة في الستينيات من ١٩٦٠، تبحث عن شيء جديد لتؤمن به، وعن طريقة جديدة للعيش؟ هل كانت أخشاب البيت القديم متعفنة؟ هل كانت الثورة حتما لا مناص منها؟ هل كان الشباب والعديد من معلميهم، بكل بساطة، متعبين من متطلبات النظام الأخلاقي القديم ويتطلعون إلى طريقة ليقولوا بها وداعا لكل ذلك؟ هل جميعهم تسلقوا وَحَسَب على ظهر أول قطار جاء عبر المدينة؟

من المؤكد أن مدرسة فرانكفورت لم تكن الوحيدة في الحلم بثورة اجتماعية وفي ابتكار ثورة اجتماعية. ففي الثلاثينيات من

١٩٣٠، كان العديد من المثقفين يفكرون على الخطوط نفسها ووصلوا إلى النتائج نفسها. وفيما يلي نص من كتاب العام لجمعية التعليم الوطني في ١٩٣٧:

> لقد اغتُصب نظام المدرسة الرأسمالي والوطني الحالي في مكان واحد فقط - هو روسيا - وذلك التغيير وقع عن طريق الثورة. ومن هنا فإن شهادة التاريخ تشير على ما يبدو إلى أننا من المحتمل أن يكون علينا أن نعتمد على ثورة من أجل تغيير اجتماعي له طبيعة مهمة وبعيدة الأثر.[٣٩]

مارغريت سانغر، وهي مؤسسة الأبوة المخططة، كانت راديكالية أشهر من أي عضو في مدرسة فرانكفورت، وقد تنبأت بأفكارهم عندما قالت: "إن تنظيم النسل يستهوي الراديكالي المتقدم لأنه محسوب ليقوض سلطة الكنائس المسيحية. وأنا أتطلع إلى اليوم الذي أرى فيه الإنسانية متحررة من استبداد المسيحية تحريرا ليس بأقل من تحررها من استبداد الرأسمالية."[٤٠]

هل كانت ثورة الستينيات من ١٩٦٠ قد اكتسحت أمريكا لو أن غرامشي لم يكتب أبدا ملاحظات في السجن أولو أن أدورنو وماركيوز لم يخرجا أبدا من ألمانيا؟ هل كان لوكاش، وغرامشي، وأدورنو، وماركيوز رجالاً لا يستغنى عنهم؟ ربما لا، ولكنهم ابتدعوا الاستراتيجية والتكتيك لثورة ماركسية ناجحة في الغرب، والثقافة

التي انطلقوا لتدميرها لم تبق هي الثقافة المهيمنة في أمريكا أو في الغرب. لقد بدؤوا حياتهم بصفتهم منبوذين وقد ينتهون في الجانب الرابح من التاريخ.

لماذا نجحوا؟ إن أربعة عوامل اجتمعت معا في الستينيات من ١٩٦٠ لتخلق الكتلة الحرجة التي انفجرت مثل أداة الدكتور أوبنهايمر في صحراء نيو مكسيكو في ألاموغوردو.

العامل الأول، كان هو "الرسالة في قارورة، " كما سمى رجال مدرسة فرانكفورت أفكارهم. وفي الوقت الذي كانت فيه أفكارهم تستنبت، كان أمريكيون آخرون، اغتربوا عن المسيحية والثقافة الرأسمالية، كانوا يعملون بشكل مستقل في استراتيجيات وأفكار مشابهة لتقويض الثقافة وإزالة أمريكا القديمة التي صاروا يمقتونها. وهذه الأفكار التي غذيت لعقود من الزمن بدأت تزدهر في الستينيات من ١٩٦٠.

العامل الثاني، هو أنه كان قد وصل إلى الحرم الجامعي، ابتداء من ١٩٦٤فرقة ضخمة من الشباب الذين لم يكونوا قد عرفوا لا الصعوبات ولا الحرب. وكان لدى الثورة الثقافية الآن جمهور ضخم، وأسير لها، ومتقبل لها. وكان هؤلاء الشباب شباباً أفسدهم الدلال، وكانوا ميسوري الحال، وخالي البال، وواثقين، ومتحررين، وسئمين

وجاهزين للتمرد. ولم يكن ابتلاع السمكة الذهبية هو ما يدور في أذهان الشباب.

وكما يذكرنا العالم المحافظ روبرت نِسبت عن السأم فيقول "إنه قوة من أكثر القوى إلحاحا وشمولية [من بين] القوى التي شكلت السلوك الإنساني، " وقال إن "سلسلة علاجات أو إنهاءات السأم هي سلسلة واسعة."[٤١] وفي مرتبة عالية منها يأتي الجنس، والمخدرات، والثورة. في الستينيات من ١٩٦٠ واجه من دعاهم آرنولد توينبي "البروليتاريا الداخلية" من الطلاب، وهم سئمون من دراستهم، واجهوا أستاذتهم الجامعيين، وهم سئمون من موادهم وحياتهم غير المثيرة -كان مزيجا قابلا للانفجار.

العامل الثالث، وكان التلفاز في الستينيات من ١٩٦٠ يستطيع أن يوصل تكتيكات وانتصارات الراديكالين في الحرم الجامعي والثوار الحضريين فوراً إلى نظرائهم. وهذه الوسيلة، وقد نضجت الآن، لم تعد هي اقطاعية الخمسينات لهودي دودي ومات ديلون، لم تكن تستطيع فقط أن تبث الأفكار الجديدة، بل كانت تستطيع أن تعزز هذه الأفكار بخلق وقائع بصرية جديدة.

العامل الرابع، كان فيتنام وهو العنصر الذي لا غنى عنه. إذا كانت الحرب تعني التضحية، وإراقة الدماء، وربما الموت، فإن جيل وود ستوك (جيل موسيقى الروك) لم يكن ليريد أي دور فيها. وما

قدمه ماركيوز كان هو الغطاء الفكري للجبن، والمناقشة الأخلاقية لادعاء المرض، وطريقة للاحتيال للتنصل من دفعة التجنيد المسحوبة في الوقت الذي يشعر فيه بالتفوق على أولئك الذين ذهبوا إلى الحرب. "الأبطال الحقيقيون" لهذه الحرب، كما قال السناتور فولبرايت وعمدة نيويورك جون ليندسي هم في كندا. ووقعت الرسالة في آذان صاغية متقبلة في مجموعة جامعات آيفي ليغ وليس فقط هناك.

وأخيراً، فإن المؤسسة الأمريكية القديمة قد كسرت على دولاب فيتنام - وهي الحرب التي شنتها الليبرالية ولم تستطع أن تربحها- وتمزقت سلطتها الأخلاقية في عيون الشباب. وهكذا صارت الطريق إلى السلطة مفتوحة للمركب السياسي للثقافة المضادة، ولحملة ماكغفرن في العام ١٩٧٢ التي كان من بين أكثر العاملين لها حماسة الشاب بيل كلنتون، وهو الفخر والمثال الذي يحتذى لجيل وود ستوك.

ولكن كل هذا يطرح سؤالاً أكبر: هل يعتبر موت الثقافة المستندة إلى الدين أمرا لا مفر منه بعد أن يكون المجتمع قد وصل إلى مرحلة اليسر؟ وعندما تصل أمة إلى أن تقهر صعوباتها التي واجهتها في مرحلة طفولتها والصراعات التي واجهتها في مرحلة مراهقتها ورجولتها، وعندما تبدأ بإنتاج حياة من اليسر والرفاهية، هل تستسلم على نحو طبيعي لمرض في الروح يقود إلى الانحطاط

والانهيار والموت؟ لقد قال أوسكار وايلد" : إن أمريكا هي البلد الوحيد الذي سار من البربرية إلى الانحطاط بدون حضارة بينهما".[٤٢] هل كان لدى هذا الرجل نقطة جديرة بالاهتمام؟

يقترح جاك بارزن أن جيل الستينيات من ١٩٦٠ بكل بساطة استأنف من حيث ترك جيل العشرينيات من ١٩٢٠. إن عصر الجنس، والإسراف في احتساء الخمر، والجاز قاد بشكل طبيعي إلى عصر الجنس، والمخدرات، ورقص الروك أند رول. ولم ينقطع التدهور إلا بشكل وجيز فقط مع إقحام حقيقة الكساد، والحرب العالمية، والحرب الباردة. وما أن انتهت الخمسينيات من ١٩٥٠ حتى تولى جيل جديد من حيث ترك جمهور العشرينيات من ١٩٢٠ الصاخبة عندما انهار السوق في العام ١٩٢٩.

ولكن إذا كان مذهب اللذة في الستينيات من ١٩٦٠ انساب من مبدأ اللذة في عصر التحريم، فإن هناك هذا الفرق: وهو أن جيل العشرينيات من ١٩٢٠ لم يكره أمريكا. إن قلة من كتاب "الجيل الضائع" هربوا من البلاد، ولكن المتمردين الاجتماعين من عشرينيات ١٩٢٠ لم يكونوا ثوريين.

وبعد كل شيء، فقد انتخبوا هاردنغ، وكوليدج، وهوفر في أعظم فوز جمهوري ساحق في الانتخابات في التاريخ. والنخبة الفكرية في الستينيات من ١٩٦٠ كانت مختلفة. وكما كتب إريك

هوفّر" : ليس هناك مكان في الوقت الحاضر يكره فيه المتعلمون بلادهم كراهية بلا حدود مثلما هو الحال في أمريكا."[٤٣]

بعد انهيار الإمبراطورية السوفيتية، سألت مجلة تايم:"هل يستطيع اليمين أن يبقى بعد النجاح؟"[٤٤] واقتبست مجلة تايم من عالم محافظ قوله:"إنها علامة نصر هائل بحيث أنه لا يوجد قضايا تستثير الوعي والعمل بالنسبة إلى المحافظين اليوم."[٤٥]

ورد جيمس كُوبر، محرر فصلية الفنون الأمريكية أمريكان آرتز كورترلي بقوله: "لا شيء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة. وإن مسألة أكبر تحث المحافظين، وفي الحقيقة كل الأمريكيين ... هي الواجب العظيم غير المنتهي الذي ألمح إليه الرئيس ريغان في خطابه الوداعي إلى الأمة ... وهو استعادة السيطرة على الثقافة من اليسار..."[٤٦]

وفي الوقت الذي كان فيه معظم المحافظين يقاتلون في الحرب الباردة، كانت عصبة صغيرة تمسك الجبهة المنسية، وهي حرب الثقافة. وقد ناشد كُوبر المحافظين أن يتولوا حرب الثقافة بصفتها قضيتهم الجديدة وتحدث عن الأرض التي فقدت من قبل وقال:

> منذ سبعين عاما مضت كتب الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي (١٨٩١-١٩٣٧) عن أهم مهمة تنتظر الاشتراكيين وهي "الاستيلاء على الثقافة." ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، كان اليسار

الليبرالي قد نجح في الاستيلاء لا على الفنون، والمسرح، والأدب والموسيقى، والباليه، فقط بل استولى أيضا على السينما، والتصوير، والتعليم، ووسائل الإعلام.

ومن خلال سيطرة اليسار على الثقافة، فإنه لا يملي الأجوبة فقط. بل يملي الأسئلة المطروحة أيضا. وباختصار، فإن اليسار يسيطر على الجهاز الكوني الذي يفهم به معظم الأمريكيين أو الأمريكي معنى الأحداث.

هذا الكون يعتمد على مفهومين كبيرين: الأول هو أنه ليس هنالك قيم مطلقة في الكون، ولا معايير للجمال والقبح، والخير والشر. والثاني هو أن اليسار - في عالم بلا إله - يمسك بالتفوق الأخلاقي بصفته الحكم النهائي لنشاطات الإنسان.[٤٧]

ولكن المحافظين أهملوا صرخة كُوبر. وبدلا من ذلك قاتلوا ضد التأمين الصحي الوطني ومن أجل اتفاقية التجارة الحرة لإمريكا الشمالية (نافتا) ومنظمة التجارة العالمية. وقال صاميويل ليبمان، ناشر نيو كرايتيريون: "إن اليمين قد صوت بأقدامه."[٤٨] وأضاف كُوبر: "إن المحافظين عادوا إلى جمع المال واستراتيجيات الحرب الباردة، وأقاموا وصححوا منقوشاتهم من أعمال جورج ستبس عن الخيول الإنجليزية المطهمة على جدران مكاتبهم، ونسوا المسألة كلها. فبعد كل شيء، عللوا انصرافهم بالسؤال ما هي أهمية الثقافة على أي حال؟"[٤٩]

"حيثما تكن محفظة الإنسان فهناك سيكون قلبه أيضا." فقلوب العديدين في اليمين هي في تقليل معدلات الضريبة الهامشية واستئصال ضريبة ربح رأس المال. وهذه قضايا جيدة بالتأكيد. ولكن ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم كله وعانى فقدان بلاده؟ هل ارتفاع الناتج المحلي الإجمالي بمعدل ٢ أو ٣ أو ٤ ٪ بالمائة هو على نفس الدرجة من الأهمية مقد قدرة الحضارة الغربية على الصمود وعلى أن نبقى أمة واحدة تحت رعاية الله وشعبا واحدا؟ مع انهيار معدل الولادات، ومع الحدود المفتوحة، ومع انتصار التعددية الثقافية المناوئة للغرب، فإن موضع الخلاف اليوم هو بقاء أمريكا بصفتها أمة منفصلة، وفريدة، وبقاء الحضارة الغربية نفسها - والعديد جدا من المحافظين قد ذهبوا غائبين بلا إجازة في القتال العظيم الأخير في حياتنا.

إذن دعونا ننظر ماذا ستعني مسيرة موت الغرب، لا في القرون المستقبلية فقط، بل في هذا القرن أيضا، ولا لأطفال أطفالنا فقط، بل للجيل الصاعد اليوم أيضا.